

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٨ - سُورَةُ ص

مكية . وقيل : مدنية وُضِعَتْ آياتها ثمان وثمانون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (ص ، وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ)

« ص » بالسكون على الوقف . وقرئ بالكسر والفتح . اسم للسورة ، على القول المتجه عندنا فيه وفي نظائره . لما قدمنا غير مارة . وقيل : قسم رمزي ، وإليه نحا المهاجرون . قال : أقسم الله سبحانه وتعالى بصدق محمد ﷺ الذي اعترف به الكل في غير دعوى النبوة ، حتى صدقه أهل الكتابين في إخباره عن الغيوب ، الدال على الصدق في دعوى النبوة . أو بصفائه عن ردائل الأخلاق وقبائح الأفعال الدال على صفائه عن نقيصة الكذب . أو بصعوده في مدارج الكمالات ، الدال على صعوده في مدارج القرب من الله - أو بصبره الكامل الذي هو لوازم الرسالة على أنه رسوله . انتهى .

« وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ » أي الشرف الدال على حقيقته وصدقه . أو التذكير ، كآية^(١) (لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ) والجواب محذوف للدلالة السياق عليه . أي إنه لحق . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)

« بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ » أي كبر « وَشِقَاقٍ » أي عداوة للحق والإذعان له . إضراب عما قبله . كأنه قيل : لا ريب فيه قطعا . وليس عدم إيمان الكفرة به لشائبة ريب مافيه . بل هم في حمية جاهلية وشقاق بئيد لله ولرسوله . ولذلك لا يدعون له . وقيل : الجواب مادل عليه الجملة الإضرابية . أي ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه . بل الذين كفروا في عزة وشقاق . ثم أوعدهم على شقاقهم بقوله تعالى :

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)
 « كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ » أى لكبرهم عن الحق، ومعاداتهم لأهلهم «فَنَادَوا»
 أى فدعوا واستغاثوا «وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ» أى وليس الحين حين فرار ومهرب ومنجاة .
 والكلام على (لات) وأصلها وعملها والوقف عليها، ووصل التاء بها أو فصلها عنها، مبسوط
 في مطولات العربية ، وفي معظم التفاسير هنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سٰجِرٌ كَذٰبٌ)
 [٥] (أَجْعَلُ الْاِلٰهَةَ اِلٰهًا وَّاحِدًا ، اِنْ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ)
 « وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ » أى رسول « مِنْهُمْ » أى من أنفسهم . يعنى النبى
 ﷺ « وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سٰجِرٌ كَذٰبٌ * أَجْعَلُ الْاِلٰهَةَ اِلٰهًا وَّاحِدًا اِنْ هٰذَا
 لَشَيْءٌ عَجَابٌ » أى بليغ فى العجب . وذلك لتمكن تقليد آبائهم فى نفوسهم ، ورسوخه فى
 أعماق قلوبهم . ومضى قرون عديدة عليه ، وإلفهم به وأنسهم له ، حتى ران على قلوبهم ،
 وغشى على أبصارهم ، ونسى باب النظر والاستدلال . بل غشى بالسكينة من بينهم . وصار
 عندهم من أبطل الباطل وأحلل المحال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهِتِكُمْ ، اِنْ هٰذَا لَشَيْءٌ
 يُرَادُ)

« وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ » أى الأشراف من قريش يحضون بعضهم على التمسك بالوثنية ،

ويتواصون بالصبر على طغيانهم قائلين « أَنْ أَمْشُوا » أى فى طريق آبائكم « وَأَصْبِرُوا عَلَى آءِ الْهَتِكُمْ » أى عبادتها مهما سمعتم من تسفيهه أحلامنا وتفنيد مزاعمنا « إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ » تامل للامر بالصبر . أى يراد منا إمضاه وتفنيد لا محالة . أى يريد محمد من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، لا قول يقال من طرف اللسان . أو المعنى : إن هذا الأمر لشيء من نواب الدهر يراد منا . أى بنا . فلا انفكك لنا عنه . وما لنا إلا الاعتصام عليه بالصبر .

القول فى تأويل قوله تعالى .

[٧] (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَأَةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا أُخْتِلَقُ)

« مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَأَةِ الْآخِرَةِ » أى ما سمعنا بهذا التوحيد الذى ندعى إليه فى ملة الفصارى . لأنهم مثلثة غير موحدة . أو فى ملة قريش التى أدركنا عليها آباءنا « إِنَّ هَذَا إِلَّا أُخْتِلَقُ » أى ما هذا التوحيد إلا فرية محضة ، لا مستند له سوى هذا الذك بزعمهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي ، بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابَ)

« أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا » أى مع أن فىنا من هو أترى وأعلى رياسة . قال الزمخشري : أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرفهم ورؤسائهم ، وينزل عليه الكتاب من بينهم كما قالوا^(١) (لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتِينَ عَظِيمٍ) وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلب به صدورهم من الحسد ، على ما أوتى من شرف النبوة من بينهم « بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي » إضراب عن مقدر . أى : إنكارهم للذكرك ليس عن علم ،

(١) [٤٣ / الزخرف / ٣١] .

بل هم في شك منه . يقولون في أنفسهم : إِمَّا وَإِمَّا « بَلْ لَمَّا يَدُوُّوا عَذَابِ » أى على الإنكار . فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد ، وصدّقوا . وتصديقهم لا ينفعهم حينئذ لأنهم صدقوا مضطرين .

قال الناصر في (الانتصاف) : ويؤخذ منه أن (لما) لائحة بالجواب . وإنما ينفي بها فعل يتوقع وجوده . كما يقول سيبويه . وفرق بينها وبين (لم) بأن (لم) نفي لفعل يتوقع وجوده لم يقبل مثبتته (قد) . و (لما) نفي لما يتوقع وجوده أدخل على مثبتته (قد) .

وقال : وإنما ذكرت ذلك لأني حديث عهد بالبحث في قوله عليه الصلاة والسلام : الشفعة فيما لم يقسم . فإني استدلت به على أن الشفعة خاصة بما يقبل القسمة . فقيـل لى : إن غايته أنه أثبت الشفعة فيما نفي عنه القسمة . فإما لأنها لا تقبل قسمة ، وإما أنها تقبل ولم تقع القسمة ، فأبطلت ذلك بأن آله النفي المذكورة (لم) ومقتضاها ، قبول المحل الفعل المنفي وتوقع وجوده . ألا تراك تقول : الحجر لا يتكلم . ولو قلت : الحجر لم يتكلم ، لكان ركيكاً من القول ، لإفهامه قبوله للكلام . انتهى . وهو لطيف جيد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ)

« أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ » أى حتى يتخيروا للنبوة ما نهى أنفسهم . كلا (١) (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) (٢) (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ وَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (أَمْ لَهُمْ مَثَلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ)

« أَمْ لَهُمْ مَثَلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ » أى فليصعدوا

(١) [٢٨ / القصص / ٦٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٢٤] .

في المراق التي توصلهم إلى السماء ، وليتحكموا بما شاءوا في الأمور الربانية والتدابير الإلهية ، إن قدروا .

روى ابن جرير^(١) بسنده عن الربيع بن أنس قال : الأسباب أدق من الشعر وأشد من الحديد . وهو بكل مكان . غير أنه لا يرى . انتهى .
وهذا البيان ينطبق على ما يعرف به الأثير الموجود في أجزاء الخلاء المظنون أنها فارغة . فتأمل .

ثم قال ابن جرير^(١) : وأصل السب عند العرب ، كل مانسب به إلى الوصول إلى المطلوب من جبل أو وسيلة ، أو رحم أو قرابة أو طريق أو محجة ، وغير ذلك . انتهى .
وقال المهايى : أى فليصعدوا في الأسباب التي هي معارج الوصول إلى العرش ، ليستقوا عليه ، فيدبروا العالم وينزلوا الوحي على من شاءوا . وأنى لهم ذلك ؟؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ)

« جُنْدٌ مَّا » أى هم جند حقير « هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ » أى الذين كانوا يتحزبون على الأنبياء قبلك . وأولئك قد قهروا وأهلكوا . وكذا هؤلاء . فلا تبال بما يقولون ولا تكترث لما به يهدون . و (هُنَالِكَ) إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لئلهذا القول ، فهو مجاز . وجوز أن يكون حقيقة ، للإشارة إلى مكان قولهم وهو مكة . قال قتادة : وعده الله وهو بمكة يومئذ ، أنه سيهزم جندا من المشركين . فجاء تأويلها يوم بدر . وقال ابن كثير : هذه الآية كقوله جلت عظمته^(٢) (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) وكان ذلك يوم بدر . وفي الآية أوجه من الإعراب أشار لها السمين

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٠ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٥٤ / القمر / ٤٥ و ٤٤] .

بقوله : (جُنْدٌ) يجوز فيه وجهان : أحدهما - وهو الظاهر - أنه خبر مبتدأ . أى هم جند . و (ما) فيها وجهان ، أحدهما - أنها مزيدة . والثانى أنها صفة لـ (جند) على سبيل التعميم ، للهاء بهم^١ ، أو للتحقير . فإن (ما) إذا كانت صفة تستعمل لهُذين المعنيين . و (هُنَالِكَ) يجوز فيه ثلاثة أوجه : أحدها - أن يكون خبراً لـ (جند) و (ما) مزيدة و (مَهْرُومٌ) نعت لـ (جند) . الثانى - أن يكون صفة لـ (جند) الثالث - أن يكون منصوباً . بـ (مَهْرُوم) . و (مَهْرُومٌ) يجوز فيه أيضاً وجهان : أحدهما - أنه خبر ثانٍ لذلك المبتدأ المقدر ، والثانى أنه صفة لـ (جند) . و (هُنَالِكَ) مشارٌ به إلى موضع التقاؤل والمحاورة بالكلمات السابقة ، وهو مكة . أى سبهز مون بمكة . وهو إخبار بالغيب . وقيل : مشارٌ به إلى نصره الإسلام . وقيل : إلى حفر الخندق ، يعنى إلى مكان ذلك . الثانى من الوجهين الأولين أن يكون (جند) مبتدأ و (ما) مزيدة و (هُنَالِكَ) نعت و (مَهْرُومٌ) خبره . وفيه بعد ، لتفلته عن الكلام الذى قبله . انتهى .

فائدة :

روى ابن عباس فى هذه الآية أنه لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل . فقالوا إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ، ويقول ويقول . فلو بعثت إليه فنهيمته ! فبعث إليه . فجاء النبي ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل . قال نخشى أبو جهل لعنه الله ، إن جلس إلى جنب أبي طالب ، أن يكون أرق له عليه ، فوثب فجلس فى ذلك المجلس . ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه . فجلس عند الباب ، فقال له أبو طالب : أى ابن أخى ! ما بال قومك يشكونك ! يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول . قال ، وأكثروا عليه من التول . وتسكلم رسول الله ﷺ فقال : يا عم إنى أريد هم على كلمة واحدة يقولونها . تدين لهم بها العرب . وتؤدى إليهم بها العجم الجزية . ففرغوا الكلمته ولقوله . فقال القوم : كلمة واحدة ؟ نعم ، وأبيك عشرا . فقالوا : وما هى ؟ وقال أبو طالب : وأى كلمة هى يا ابن أخى ؟ قال ﷺ : لا إله إلا الله . فقاموا فرعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون :

(أَجْمَلَ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) ونزلت الآية . رواه ابن جرير^(١) والإمام أحمد والنسائي ، والترمذي وحسنه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ)

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ » أى قبل قريش « قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ » وهم قوم هود « وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ » أى الملك الثابت . وأصله البيت المطنّب ، أى المربوطة أطنا به - أى حباله - بأوتاده . استعير للملك استعارة تصريحية . وصف به فرعون مبالغةً يجعله عين ملكه . وأشبهه فرعون في ثبات ملكه بنى بيت ثابت أقيم عموده وثبتت أوتاده . على طريق الاستعارة المكنية . وأثبت له ما هو من خواصه تحميلاً ، وهو قوله (ذُو الْأَوْتَادِ) فإنه لازم له . أو هو كناية . حيث أطلق اللازم وأريد الملزوم وهو الملك الثابت . وقد جاء هذا في قول الأسود^(٢) من شعراء الجاهلية :

ولقد غنّوا فيها بأنعم عيشةٍ في ظل مُلكٍ ثابتٍ الأوتادِ

أو المعنى : ذو الجموع الكثيرة . سمّوا بذلك لأن بعضهم يشد بعضاً ، كالوتد يشد البناء . فالاستعارة تصريحية في الأوتاد . أو هو مجاز مرسل للزوم الأوتاد للجنف . أو هو على حقيقته والمراد الباني العظيمة والهيكل الثابتة الفخيمة . واللفظ صادق في الكل .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) البيت رقم ١٢ من الفضلية رقم ٤٤ لصاحبها الأسود بن يعفر النهشلي .

وأول القصيدة:

نام الخليلُ وما أحسنَ رقادِي والهَمُّ محتضِرٌ لدىَّ وسادِي

غنوا : أقاموا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَنَمُودُ وَقَوْمٌ لُّوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْلِيَّةٍ، أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ)

«وَنَمُودُ» وهم قوم صالح «وَقَوْمٌ لُّوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْلِيَّةٍ» أى الغيضة ، وهم قوم شعيب «أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ» أى الكفار المتحزبون على رسلهم، الذين جعل الجند المهزوم منهم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِن كُفِّرْ كَلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ)

«إِن كُفِّرْ كَلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ» أى فوجبت عليهم عقوبتى . قال الشهاب : (إِن) نافية و (كُلٌّ) محذوف الخبر . والتفريع من أعم العام . أى ما كل أحد يخبر عنه بشيء ، إلا يخبر عنه بأنه كذب جميع الرسل . لأن الرسل يصدق كلُّ منهم الكل . فتكذيب واحد منهم تكذيب للكل . أو على أنه من مقابلة الجمع بالجمع . فيكون كل كذب رسوله . أو الحصر بمبالغة . كأن سائر أوصافهم بالنظر إليه ، بمنزلة العدم . فهم غالون فيه . انتهى . وقال الزخشرى : وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه ، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أولاً ، وبالاستثنائية ثانياً ، وما فى الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص - أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه .

وزاد الناصر فائدة أخرى للتكرير . وهى أن الكلام لما طال بتعدد آحاد المكذبين ، ثم أريد ذكر ما حاق بهم من العذاب جزاء لتكذبيهم ، كرر ذلك مصحوباً بالزيادة المذكورة ، لئلى قوله تعالى (فَحَقَّ عِقَابٌ) على سبيل التطرية المعتادة عند طول الكلام . وهو كما قدمته فى قوله^(١) (وَكَذَّبَ مُوسَىٰ) حيث كرر الفعل ليقترن بقوله^(١) (فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ) . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهُمَا مِن فِوَاقٍ)

«وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ» أى أهل مكة «إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً» أى أخذة واحدة بعذاب

(١) [٢٢ / الحج / ٤٤] .

بئس . يقال : صاح الزمان بهم ، إذا هلكوا . كمال قال :

صاح الزمان بآل برمكٍ صيحةً خَرَّوا لشدتها على الأذقانِ

وأصله من الغارة إذا عافست القوم فوقعت الصيحة فيهم « مآلها من فواقٍ » أى من توقفٍ مقدار فواق . وهو ما بين الحلبتين . أو رجوع وترداد . فإنه فيه يرجع اللبن إلى الضرع ف (فواق) إما بحذف مضافين أو مجاز مرسل بذكر اللزوم وإرادة لازمه . وقرئ بالضم . وها لغتان . وقيل : المفتوح اسم مصدر من (أفاق المريض) إفاقة وفاقة ، إذا رجع إلى الصحة . والمضموم اسم ساعة رجوع اللبن للضرع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَآ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ)

« وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا » أى نصيبنا من العذاب الذى وعدته . كقوله (١) (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) « قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ » أى الجزاء . وقولهم ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية . كما قص عنهم نظائره فى عدة آيات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ، إِنَّهُ وَأَوَّابٌ)

« أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » أى فقد وعدت بالنصر والظفر والملك والتأييد ، كما أوتى داود عليه السلام ، مما سارت به الأمثال (٢) ولذا قال تعالى « وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ »

(١) [٢٢ / الحج / ٤٧] و [٢٩ / العنكبوت / ٥٤ و ٥٣] .

(٢) ما ذكرناه هنا من وجه الارتباط بين نبأ داود وما قبله من الوعد بإيتائه ما أوتى ،

هو ما يظهر من السياق ويشعر به نظائره فى قصص الأنبياء عليهم السلام .

وما ذكره الزخشرى وتابمه عليه البيضاوى وغيرها فى وجه الاتصال ، فما تشعر من ذكره الأبدان . ولا علاقة له فى الوصلة ولا المناسبة أصلاً . فخذ ما أوتيت وكن من الشاكرين لله رب العالمين . انتهى مؤلفه .

أى : القوة . أى : الاجتهاد فى أداء الأمانة والتشدد فى القيام بالدعوة ومجانبة إظهار الضعف والوهن « إِنَّهُ وَ أَوَّابٌ » أى رجّاع إليه تعالى بالإنابة والخشية والعبادة والصيام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ)

[١٩] (وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَهُ وَ أَوَّابٌ)

« إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ وَ يُسَبِّحْنَ » أى تبعاً لتسبيحه « بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً » أى مجموعة عنده يسبحن معه « كُلٌّ لَهُ وَ » أى لله تعالى « أَوَّابٌ » أى مطيع منقاد . يرجع بتسبيحه وتقدسه إليه .

قال ابن كثير : أى أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار . كما قال عز وجل^(١) (يَجِجِبَالٌ أَوَّابٌ مَعَهُ وَالطَّيْرُ) وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجع بترجييمه ، إذا مرّ به الطير وهو ساج فى الهواء ، فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب . بل يقف فى الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشاخات ترجع معه ، وتسبح تبعاً له . انتهى . أى بأن خلق فيها حياةً ونطقاً . أو كان له عليه السلام من شدة صوته الحسن دوىّ فى الجبال ، وحنين من الطيور إليه ، وترجيع . وقد عهد من الطير القمرىّ أنه ينتظر سكنة المصوت والقارىّ بصوت حسن أو المنشد ، فيجيبه ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ)

« وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَ » أى قويناه بوفرة العدد والعدد ونفوذ السلطة وإمداده بالتأييد والنصر « وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ » أى النبوة أو الكلام المحكم المتضمن للمواعظ والأمثال

(١) [٣٤ / سبأ / ١٠] .

والحِصَّ عَلَى الآدَابِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ . وَكَانَ زُبُورَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، كُلَّهُ حِكْمًا غَرَّرَا « وَقَفَّصَلِ
الْخِطَابِ » أَى فَصَلَ الْخِصَامَ بِتَمْيِيزِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ ، وَرَفَعَ الشَّبَهَ ، وَإِقَامَةَ الدَّلَائِلِ .
وَكَانَ يَقِيمُ بِذَلِكَ الْعَدْلَ الْجَالِبَ مَحَبَةَ الْخَلَائِقِ ، وَلَا يَخَالِفُهُ أَحَدٌ مِنْ أَقَارِبِهِ وَلَا مِنْ الْأَجَانِبِ .
ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مِنْ حِكْمَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَضَائِهِ الْفُضْلَ ، وَشِدَّةَ خَوْفِهِ وَخَشْيَتِهِ مَعَ ذَلِكَ ،
مَا قَصَّهُ بِقَوْلِهِ سَبِّحَانَهُ :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَهَلْ أَمْتَكَ نَبِؤُا الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ)

« وَهَلْ أَمْتَكَ نَبِؤُا الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » أَى وَلِجُوه . وَ (المِحْرَابِ)
مَقْدَمُ كُلِّ بَيْتٍ وَأَشْرَفُهُ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ ، خَصِمَانِ بِنِىْ بَعْضُنَا

عَلَى بَعْضٍ ، فَأَحْكُمَ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَأُهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ)

« إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ » أَى مَنَا . فَلَسْنَا فَاتَكِينِ

وَإِنَّمَا نَحْنُ « خَصِمَانِ » أَى شَخْصَانِ مَتَخَاصِمَانِ تَحَاكَمْنَا إِلَيْكَ « بِنِىْ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ »

أَى تَعْدَى « فَأَحْكُمَ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ » أَى بِمَا يَطَابِقُ أَمْرَ اللَّهِ « وَلَا تُشْطِطْ » أَى وَلَا تَبْعُدْ

عَنِ الْحَقِّ أَوْ تَجَاوِزَهُ « وَأُهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ » أَى بِحَيْثُ لَا تَمِيلُ عَنِ الْحَقِّ أَصْلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ

أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ)

« إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً » أَى أَنْتِى مِنَ الضَّأْنِ « وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ »

أى فلم ينظر إلى غناه عنها ، ولا إلى افتقارى إليها ، بل أراد التغلب على « فَمَّا أَكْفَلْنِيهَا »
أى : ملكنيها . بمعنى اجعلني كافلها كما أ كفل ما تحت يدي . أو بمعنى اجعلها كفلى أى
نصيبي « وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ » أى غلبني فى المكالمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نِعْمَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ
لَيَبْتَغِينَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ،
وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ)

[٢٥] (فَمَقَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ، وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ)

« قَالَ » أى داود « لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نِعْمَتِكَ » أى طلب نعمتك التى أنت أحوج
إليها ليضمها « إِلَىٰ نِعَاجِهِ » أى مع استغفائه عن هذا الضم « وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ »
أى الإخوان الأصدقاء المتخالطين فى شئونهم « لَيَبْتَغِينَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ » أى بغى الأعداء .
مع أن من واجب حقهم النصفة على الأقل ، إن لم يقوموا بفضيلة الإيثار « إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى فإنهم لا يبتغون « وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ » أى وهم قليل . و (ما) مزيدة
للإيهام والتعجيب من قلوبهم .

قال الشهاب : فيه مبالغة من وجوه : وصفهم بالقللة ، وتفكير (قليل) وزيادة (ما)
الإيهامية . والشىء إذا بولغ فيه كان مظنة للتمجيد منه ، فكأنه قيل : ما أقلهم .

وفى قضائه عليه السلام هذا ، من الحكمة وفصل الخطاب ما يهيج الأفتدة ويقر عين
الغبون . ذلك أنه صدع بالحق أبغ صدع . فجهر بظلم خصمه وبغية جهراً لا محاباة فيه ولا مواربة
فأقر عين المظلوم . وعرف الباغى ظلمه وحينفه ، وأن سيف العدل والإنصاف فوقه . ثم نفس
عن قلب المظلوم البائس ، وروح عن صدره بذكر ما عليه الأكثر من هذه الخلة - خلة البغى

وعدم الإنصاف - مع الخلطة والخلّة ، ليمتأسى ويتسلى كما قيل (إن التأسي روح كل حزين) ثم أكد الأمر بقلّة القامئين بمقوق الأخوة ، ممن آمن وعمل صالحا ، فكيف بغيرهم؟ وكلها حكم وغرر ودرر ، حقائق تنطبق على أكثر هذا السواد الأعظم من الناس ، الذين يدعون المحبة ، والصدّاقة . ولعظم شأن حقوق المحبة أسهب في آدابها علماء الأخلاق ، إمهبا با نوعوا فيه الأبواب ، ولونوا فيه الفصول . ومع ذلك لاتزال الشكوى عامة . وقد امتلأت من منظومها ومنثورها كتب الأدب ، كما لا يخفى على من له إلمام به . وبالله التوفيق « وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ » أى ابتليناه بتلك الحكومة « فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ وَذَلِكَ » أى ما استغفر منه « وَإِنَّ لَهُ وَعِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ » أى لقربا « وَحَسَنَ مَّآبٍ » أى مرجعاً حسناً وكرامة ، فى الآخرة .

تنبيهات :

الأول - للفسرين فى هذا النبأ أقوال عديدة ووجوه متنوعة . مرجعها إلى مذهبين : مذهب من يرى أنها تشير تعريضا إلى وزر ألمّ به داود عليه السلام ثم غفر له . ومذهب من يرى أنها حكومة فى خصمين لا إشعار لها بذلك . فمن ذهب إلى الأول ابن جرير^(١) . فإنه قال : هذا ممثّل ضربه الخصم المتسوّرون على داود محرابه . وذلك أن داود كانت له ، فيما قيل ، تسع وتسعون امرأة . وكانت للرجل الذى أغزاه حتى قتل امرأة واحدة . فلما قُتل نسكح ، فيما ذكر ، داود امرأته . ثم لما قضى للخصمين بما قضى ، علم أنه ابتلى . فسأل غفران ذنبه وخرّ ساجداً لله وأتاب إلى رضا ربه ، وتاب من خطيئته . هذا ما قاله ابن جرير^(١) . ثم أسند قصته مطولة من روايات عن ابن عباس والسّدىّ وعطاء والحسن وقتادة ووهب ومجاهد . ومن طريق عن أنس مرفوعا . ويشبهه سياق بعضها ما ذكر فى التوراة المتداولة الآن .

قال السيموطىّ فى (الإكمال) : القصة التى يحكونها فى شأن المرأة ، وأنها أعجبتة ، وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل ، أخرجها ابن أبى حاتم من حديث أنس مرفوعا .

(١) انظر الصفحة ١٤٣ وما يتبعها من الجزء الثالث والعشرين .

وفي إسناد ابن لهيعة ، وحاله معروف ، عن ابن صخر عن يزيد الرقاشي وهو ضعيف . وأخرجها من حديث ابن عباس موقوفا . انتهى .

أقول : أما المرفوع إلى النبي ﷺ فيها ، فلم يأت من طريق صحيح . وأما الموقوف من ذلك على الصحب والأتباع رضى الله عنهم ، فعمولهم في ذلك ما ذكر في التوراة من هذا النبأ ، أو الثقة بمن حكى عنها . وينبنى على ذلك ذهابهم إلى تجويز مثل هذا على الأنبياء . وقد ذهبت طائفة إلى تجويز ما عدا الكذب في التبليغ . كما فصل في مطولات الكلام .

قال ابن حزم رحمه الله : وهو قول الكرامية من المرجئة ، وابن الطيب الباقلاني من الأشعرية ، ومن اتبعه . وهو قول اليهود والنصارى . ثم رد هذا القول ، رحمه الله ، ردًّا متينا .

وأما المذهب الثاني ، فهو ما جزم به ابن حزم في (الفصل) وعبارته : ما حكاه تعالى عن داود عليه السلام قول صادق صحيح ، لا يدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقةون بجرافات ولدها اليهود . وإنما كان ذلك الخضم قوماً من بني آدم ، بلاشك ، مختصمين في نجاج من النعم على الحقيقة بينهم . بنى أحدهما على الآخر على نص الآية . ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء ، فقد كذب على الله عز وجل ، وقوله ما لم يقل ، وزاد في القرآن ما ليس فيه ، وكذب الله عز وجل وأقر على نفسه الخبيثة ، أنه كذب الملائكة . لأن الله تعالى يقول (وَهَلْ أَتَاكَ نَبُوءُ الْخَصْمِ) فقال هو : لم يكونوا قط خصمين ، ولا بنى بعضهم على بعض ، ولا كان قط لأحدهما تسع وتسعون نعمة ، ولا كان للآخر نعمة واحدة ، ولا قال له أ كفلنيها . فاعجبوا . لِمَ يتحمون فيه الباطل أنفسهم ؟ ونعوذ بالله من الخذلان . ثم كل ذلك بلا دليل ، بل الدعوى المجردة . وتالله ! إن كل امرئ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشق امرأة جاره ، ثم يعرض زوجها للقتل عمداً ، ليتزوجها . وعن أن يترك صلاته لطائر يراه . هذه أفعال السفهاء التهور كين الفساق المتمردين . لأفعال

أهل البرِّ والتقوى . فكيف برسول الله ﷺ الذي أوحى إليه كتابه وأجرى على لسانه كلامه ؟ لقد تزَّهه الله عز وجل عن أن يمر مثل هذا الفحش بيباله . فكيف أن يستضيف إلى أفعاله ؟ وأما استغفاره وخروره ساجداً، ومغفرة الله له، فالأنبياء عليهم السلام أولى الناس بهذه الأفعال السكرية . والاستغفار فعل خير لا ينكر من مَلَكٍ ولا من نبي . ولا من مذب ولا من غير مذب . فالتبي يستغفر الله لذنبه أهل الأرض . والملائكة كما قال الله تعالى (١) (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) . وأما قوله تعالى عن داود عليه السلام (وظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ) وقوله تعالى (فَغَفَرْنَا لَهُ وَذَلِكَ) فقد ظن داود عليه السلام أن يكون ما آتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة . فقد كان رسول الله ﷺ يدعو في أن يثبت الله قلبه على دينه . فاستغفر الله تعالى من هذا الظن ، فغفر الله تعالى له هذا الظن . إذ لم يكن ما آتاه الله تعالى من ذلك فتنة . انتهى كلام ابن حزم ، وهو وقوف على ظاهر الآية ، مجرداً عن إشارة وإيماء .

وقال البرهان البقاعي في (تفسيره) : وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود .

ثم قال : وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك في حق داود عليه السلام . لأن عيسى عليه السلام من ذريته ، ليجدوا سبيلاً إلى الطعن فيه . انتهى .

ثم قال : وقوله تعالى (فَغَفَرْنَا لَهُ وَذَلِكَ) أي الوقوع في الحديث عن إسناد الظلم إلى أحد بدون سماع لكلامه . وهذه الدعوى تدريب لداود عليه السلام في الأحكام . وذكرها النبي ﷺ تدريب له في الأناة في جميع أموره على الدوام . ولما ذكر هذا، ربما أوهم شيئاً في مقامه ﷺ ، فدفعه بقوله (٢) (وَإِنَّ لَهُ وَعِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ) فالقصة لم يجر ذكرها

(١) [٤٠ / غافر / ٧] .

(٢) أخرجه الترمذی في : ٣٠ - كتاب القدر، ٧ - باب ماجاء أن القلوب بين أصبعي

الرحمن . (٣) [٣٨ / ص / ٤٠] .

إلا للترقية في رتب السكّال . وأول دليل على ما ذكرته ، أن هذه الفتنة إنما هي بالتدريب في الحكم ، لا بامرأة ولا غيرها . وأن ما ذكره من قصة المرأة باطل وإن اشتهر . فسكّم من باطل مشهور ، ومذكور ، هو عين الزور . انتهى .

وقال ابن كثير : قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات . ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه . ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصحّ سنده ، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه . ويزيد ، وإن كان من الصالحين ، لكنّه ضعيف الحديث عند الأئمة . فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة ، وأن يردّ علمها إلى الله عز وجل . فإن القرآن حق ، وما تضمن فهو حق أيضاً . انتهى .

وقال القاضي عياض في (الشفا) : وأما قصة داود عليه السلام ، فلا يجب أن يلتفت إلى ماسطره فيها الإخباريون على أهل السكتاب الذين بدلوا وغيروا ، ونقله بمض المفسرين . ولم ينص الله على شيء من ذلك ، ولا ورد في حديث صحيح . والذي نص الله عليه قوله (وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ) وقوله فيه (أَوَّابٌ) فعني (فَتَنَّاهُ) أي اختبرناه . و (أَوَّابٌ) قال قتادة : مطيع . وهذا التفسير أولى . قال ابن عباس وابن مسعود : ما زاد داود على أن قال للرجل : انزل عن امرأتك وأكفليها . فعاتبه الله على ذلك ونبهه عليه . وأنكر عليه شغله بالدنيا . وهذا هو الذي ينبغى أن يعول عليه من أمره . وقد قيل خطبها على خطبته ، وقيل بل أحب بقلبه أن يستشهد . وحكى السمرقندي أن ذنبه الذي استغفر منه قوله (لَقَدْ ظَلَمَكَ) فظلمه بقول خصمه . وقيل : بل لما خشيه على نفسه ، وظن من الفتنة بما بسط له من الملك والدنيا . وإلى نفي ما أضيف في الأخبار إلى داود من ذلك - ذهب أحمد بن نصر وأبو تمام ، وغيرهما من المحققين . قال الداودي : ليس في قصة داود وأوريا خبر يثبت . ولا يظن بنبيّ محبة قتل مسلم . وقيل : إن الخصمين اللذين اختصما إليه ، رجلان في نتاج غم على ظاهر الآية . وقيل : بل لما خشى على نفسه وظن من الفتنة لما بسط له من الملك والدنيا . انتهى .

وقال ابن القيم في أواخر كتابه (الجواب السكافي) في مباحث العشق: وقد أُرشد ﷺ المتحابين إلى الفكاح. كما في سنن ابن ماجه^(١) مرفوعاً: لم يُرَ للمتحابين مثل الفكاح. ونكاحه لمعشوقه هو دواء العشق الذي جعله الله دواءً شرعاً وقدرأً. وبه تداوى نبي الله داود ﷺ ولم يرتكب نبي الله محرماً. وإنما تزوج المرأة وضمها إلى نسائه لمحبتته لها. وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته. ولا يليق بنا المزيد على هذا. انتهى .

وهذا منه تسليم ببعض القصة لاتبامها . وهو من الأقوال فيها .

وأما دعوى بعضهم أن التوراة تعدّ داود ملكاً حكيماً، لانبيا، لدليل ذكره في أسفار الملوك منها ، وما فيها من أنه بعث إليه نبيّ يقال له قاشان ، ضرب له المثل المذكور - فدعوى مردودة من وجوه: منها أن الاستدلال بالتوراة التي بين أيديهم في إثبات أوفى لا يعول عليه. كيف لا؟ وقد أوتينا بيمضاء نقية محفوظة من التفسير والتبديل بمحمد تعالى . ومنها أن نبوة داود عليه السلام لاخلاف فيها عند المسلمين ، فلا عبرة بخلاف غيرهم . ومنها أنه لا مانع أن تجتمع النبوة والملك لمن أَراده الله واصطفاه . وقد فعل ذلك بداود وسليمان عليهما السلام . ومنها أنه لا حاجة في كتابنا الكريم أن يتم بما جاء في غيره ، أو يحاول رده إلى سواء من الكتب ، أو هي إليه ، لاستغنائاه بنفسه . بل وكونه مهمماً على سائر الكتب ، كما أخبر الله تعالى عنه . فليتأمل ذلك . والله أعلم .

وقد روى أن عمر بن عبد العزيز حدّث نبأ داود على ما يرويه القصاص ، وعنده رجل من أهل الحق . فكذب المحدث به، وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب الله، فما ينبغي أن يلتمس خلافها . وأُعْظِمُ بأن يقال غير ذلك . وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها سترأ على نبيه، فما ينبغي إظهارها عليه. فقال عمر: لسماعي هذا الكلام، أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس . نقله الزمخشري .

(١) أخرجه ابن ماجه في : ٩ - كتاب الفكاح ، ١ - باب ما جاء في فضل الفكاح ،

حديث ١٨٤٧ (طبعتنا) .

قال الناصر في (الانتصاف) : وقد التزم المحققون من أئمتنا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، داود وغيره ، منزهون من الوقوع في صفائر الذنوب ، مبرءون من ذلك ، والنسوا المحامل الصحيحة لأمثال هذه القصة . وهذا هو الحق الأبلج ، والسبيل الأبهج ، إن شاء الله تعالى . انتهى .

التنبيه الثاني - قال ابن الفرّس : في هذه القصة دليل على جواز القضاء في المسجد (أى لظاهر المحراب . إلا أنه ليس نصّاً في محراب المسجد) والتلطف في ردّ الإنسان عن المكروه صنعه . وأنه لا يؤاخذ بمنفٍ ما أمكن . وجواز المعارض من القول .

قال الزمخشري : وإنما جاءت على طريقة التمثيل والتعريض ، دون التصريح ، لسكونها أبلغ في التوبيخ . من قبل أن المتأمل إذا أداه إلى الشعور بالمرّض به ، كان أوقع في نفسه ، وأشدّ تمكناً من قلبه ، وأعظم أثراً فيه ، وأجلب لاحتشامه وحيائه ، وأدعى إلى التنبيه على الخطأ فيه ، من أن يباده به صريحاً ، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة . ألا ترى إلى الحكماء ؟ كيف أوصوا في سياسة الولد ، إذا وجدت منه هنة منكرة ، بأن يعرض له بإنكارها عليه ، ولا يصرح . وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله ، إذا تأملها استسمح حال صاحب الحكاية ، فاستسمح حال نفسه . وذلك أزجر له . لأنه ينصب ذلك مثالا لحاله ، ومقياساً لشأنه . فتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة . مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة .

الثالث - قال ابن مسعود في قوله تعالى (إِنَّ هَذَا أَخِي) : أى على ديني . أخرجه ابن أبي حاتم . ففيه جواز إطلاق (الأخ) على غير المناسبات . واستدل بقوله تعالى (وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ) على جواز الشركة . أفاده في (الإكمال) .

الرابع - قال السيوطي في (الإكمال) : استدل بقوله تعالى (وَخَرَّ رَاكِعًا) من أجاز التعويض عن سجود التلاوة بركوع . والأكثر على أن الركوع هنا مجاز مرسل ، عن

السجود . لأنه ، لإفضائه إليه ، جعل كالسبب ، ثم تجوز به عنه . أو هو استعارة له ، لمشاہتة له في الانحناء والخضوع .

الخامس - قال ابن كثير : اختلف الأئمة في سجدة (ص) هل هي من عزائم السجود؟ على قولين : أحدهما أنها ليست من العزائم ، بل هي سجدة شكر . لما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إنها ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها ، رواه أحمد والبخاري^(١) وأصحاب السنن . وعنه أنه قال : إن النبي ﷺ سجد في (ص) وقال : سجدها داود عليه الصلاة والسلام توبة ، ونسجدها شكراً ، تفرد به النسائي^(٢) . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر (ص) فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه . فلما كان يوم آخر قرأها . فلما بلغ السجدة تشزن الناس للسجود . فقال ﷺ : إنما هي توبة نبي . ولكن رأيتكم تشزنتم ، فنزل وسجد . تفرد به أبو داود^(٣) . وإسناده على شرط الصحيح ، وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)

« يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ » أى استخلفناك على الملك في الأرض

(١) أخرجه البخاري في : ١٧ - كتاب سجود القرآن ، ٣ - باب سجدة ص ،

حديث ٥٨٩ .

(٢) أخرجه في : ١١ - كتاب الافتتاح ، ٤٨ - باب سجود القرآن ، السجود في ص .

(٣) أخرجه في : ٧ - كتاب السجود ، ٥ - باب السجود في ص ، حديث رقم ١٤١٠ .

كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويمسكه عليها ، ومنه قولهم : خلفاء الله في أرضه « فَأُحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ » أى هوى النفس ، من الميل إلى مال أو جاه أو قريب أو صاحب « فَمِضْلَكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى صراطه الموصل إلى السمكالات ، كحفظ المملكة والنصر على الأعداء ، والنجاة فى الآخرة ورفع الدرجات فيها « إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ مِّمَّا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ » أى بسبب نسيانهم ، وهو ضلالهم عن السبيل ، فإن تذكره يقتضى ملازمة الحق ومخالفة الهوى .

تنبية :

فى الآية بيان وجوب الحكم بالحق ، وأن لا يميل إلى أحد الخصمين لقربة أو رجاى أو سبب يقتضى الميل . واستدل بها بعضهم على احتياج الأرض إلى خليفة من الله . كذا فى (الإكيل) .

وقال ابن كثير : هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى . ولا يمدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله . وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب ، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد . روى ابن أبى حاتم عن أبى زرعة ؛ أن الوليد بن عبد الملك قال له : أىحاسب الخليفة ، فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ! أقول ؟ قال : قل فى أمان . قلت : يا أمير المؤمنين ! أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام ؟ إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة . ثم توعد فى كتابه قال تعالى (يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ) الآية .

وقال الرازى : اعلم أن الإنسان خلق مديناً بالطبع . لأن الإنسان الواحد لا تنظم مصالحه إلا عند وجود مدينة تامة . حتى هذا يجرث وذاك يطحن وذاك يخبز وذلك ينسج والآخر يخطط . وبالجملة ، فيكون كل واحد منهم مشغولاً بهم . وينتظم من أعمال الجميع

مصالح الجميع . فثبت أن الإنسان مدني بالطبع . وعند اجتماعهم في الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات . ولا بد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات ويفصل تلك الحكومات . وذلك هو السلطان الذي ينفذ حكمه على الكل . فثبت أنه لا تنظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس . ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس ، إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه ، عظم ضرره على الخلق . فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه ، ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه . وذلك يفضي إلى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج في الخلق . وذلك يفضي بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك . أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقة الإلهية ، انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه : فهذا هو المراد من قوله (فَأَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ) يعني لا بد من حاكم بين الناس بالحق . فكن أنت ذلك . ثم قال (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) الآية ، وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله . والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب . فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا » أي خلقا باطلا ، لا حكمة فيه . أو مبطلين عابثين ، كقوله تعالى ^(١) (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ) وهو أن تقوم الناس بالقسط في المعتقدات والعبادات والمعاملات « ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا » أي ، ولذا أنكروا البعث والجزاء على الأعمال . وأخذوا يصدون عن سبيل الله ويبغون في الأرض الفساد .

(١) [٤٤ / الدخان / ٣٨ و ٣٩] .

قال الزمخشري : ومن جحد الخالق فقد جحد الحكمة من أصلها . ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق ، وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره . فكان إقراره بكونه خالقاً ، كإقرار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ
أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)

« أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ » قال المهايى : أى : أترك البعث بالكلية ، أم نعمت ونجعل الذين آمنوا فشكروا نعمة العقل والكتاب . وعملوا الصالحات فشكروا نعمة الأعضاء ، كالمفسدين ، بصرف العقل والأعضاء إلى غير ما خلقت له ؟ « أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ » أى مخالفة أمر الله رعايةً لمحبهته « كَالْفُجَّارِ » أى الذين يخالفون أوامر الله ، ولا يبالون بمداوته . أى لا تفعل ذلك ولا يستوون عند الله .

قال ابن كثير : وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ، ويعاقب فيها هذا الفاجر . وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة ، على أنه لا بد من معاد وجزاء . فإننا ترى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ، ويموت كذلك . ويزى المطيع المظلوم يموت بكمده . فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل ، الذى لا يظلم مثقال ذرة ، من إنصاف هذا من هذا . وإذ لم يقع هذا في هذه الدار ، فنعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة . ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة ، قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (كَتَبْنَا لَهُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ أَنْ يُولَدَ وَأَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)

« كَتَبْنَا لَهُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ أَنْ يُولَدَ » أى كثر الخير « لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ » قال المهايى : أى لينظروا في ألفاظه وترتيبها ولوازمها . فيستخرجوا منها علوماً بطريق الاستدلال .

وقال الزمخشريّ : تدبر الآيات : التفكر فيها والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة . لأن من اقتنع بظاهر المتولّم لم يحلّ منه بكثير طائل ، وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها ، ومهرة نثور لا يستولدها . وعن الحسن : قد قرأ هذا القرآن عبید وصبيان لا علم لهم بتأويله . حفظوا حروفه وضيعوا حدوده . حتى إن أحدهم ليقول : والله ! لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا ، وقد ، والله ! أسقطه كله . ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل ، والله ! ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده . والله ! ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة . لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء . اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين ، وأعدنا من القراء المتكبرين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ وَءَاوَابٌ)

« وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ وَءَاوَابٌ » أي كثير الرجوع إلى الله تعالى ، بالتوبة والإنابة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ)

« إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ » أي من الخيل ، جمع (صافن) وهو الذي يقوم على طرف سنبك يدٍ أو رجلٍ ، « الْجِيَادُ » جمع (جواد) وهو الذي يسرع في جريه أو بمعنى الحسان جمع (جيد) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ، حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)

« فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي » أي آثرته عليه . عدل عنه للمناسبة

اللفظية وقصد التجنيس . وفائدة التضمن إشارة إلى عروضة ، و (ذِكْرٌ رَيِّ) إما مضاف لفاعله أو لمفعوله .

قال الزمخشري : و (الخير) المال كقوله (١) (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا) وقوله (٢) (وَإِنَّهُ وَحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) والمال : الخيل التي شغلته ، أو سعى الخيل خيراً كأنها نفس الخير ، لتعلق الخير بها ، قال رسول الله ﷺ (٣) : الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة . وقال في زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم : ما وصف لي رجل فرأيت ، إلا كان دون ما بلغني ، إلا زيد الخيل ، وسماه زيد الخير . وسأل رجل بلالاً رضى الله عنه عن قوم يستبقون ، من السابق؟ فقال : رسول الله ﷺ . فقال له الرجل : أردت الخيل . فقال : وأنا أردت الخير . « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » أى غربت الشمس . متعلق بقوله (أَحَبُّتُ) وفيه استعارة تصريحية أو مكنية لتشبيه الشمس بامرأة حسناء ، أو ملك . وباء (بِالْحِجَابِ) للظرفية ، أو الاستعانة أو الملابس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (رُدُّوْهَا عَلَيَّ ، فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ)

« رُدُّوْهَا عَلَيَّ » بمعنى الصافنات . وهذا من مقول القول ، فلا حاجة إلى تقدير قول آخر « فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ » أى فجعل يمسح مسحاً ، أى يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها ، بمعنى يقطعها .

تنبيه :

قال ابن كثير : ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أن سليمان عليه السلام اشتغل

(١) [٢ / البقرة / ١٨٠] . (٢) [١٠٠ / العاديات / ٨] .

(٣) أخرجه البخارى في : ٦١ - كتاب المناقب ، ٢٨ - باب حديثي محمد بن المثنى ،

حديث رقم ١٣٦٨ ، عن أنس .

بعرض الخيل حتى فات وقت صلاة العصر ، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً ، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر ، حتى صلاها بعد الغروب . وذلك ثابت في الصحيحين^(١) من غير وجه . ويحتمل أنه كان سائفاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو ، والقتال . والخيلُ تراد للقتال ، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعاً ففسخ ذلك بصلاة الخوف ، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسابقة والمضايقة حتى لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود . كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في فتح (تستر) وهو منقول عن مكحول والأوزاعي وغيرهما ، والأول أقرب . لأنه قال بعد (رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِأَلْسُونٍ وَالْأَعْنَاقِ) قال الحسن البصري : قال : لا ، والله ! لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك . ثم أمر بها فعمرت . وكذلك قال قتادة .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حباً لها . وهذا القول اختاره ابن جرير^(٢) . قال : لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة ، ويهلك مالا من ماله بلا سبب ، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولاذنب لها . وهذا الذي رجح ابن جرير ، فيه نظر . لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا . ولا سيما إذا كان غضبا لله تعالى ، بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة . ولهذا لما خرج عنها لله تعالى ، عوضه الله عز وجل ما هو خير منها . وهو الريح التي تجرى بأمره رضاء حيث أصاب ، غدوها شهر ورواحها شهر . فهذا أسرع وخير من الخيل . روى الإمام أحمد^(٣) عن ابن قتادة وأبي الدهماء ،

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٢٩ - باب غزوة الخندق ، حديث رقم ١٤٠٠ ، عن علي .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٢٠٢ (طبعنا) (٢) انظر الصفحة رقم ١٥٦ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) . (٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٧٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

وكانا يكثران السفر نحو البيت ، قالوا : أتينا على رجل من أهل البادية . فقال لنا البدوي ، أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله عز وجل . وقال : إنك لاتدع شيئاً اتقاء الله تعالى ، إلا أعطاك الله عز وجل خيراً منه . انتهى ما ذكره ابن كثير .

وقال القاشاني : أى طفق يمسح السيف بسوقها ، يعرّقب بعضها وينحجر بعضها ، كسراً لأصنام النفس التي تعبدها بهواها ، وقعا لسورتها وقواها ، ورفعا للحجائب الحائل بينه وبين الحق ، واستغفاراً وإبانة إليه بالتجريد والترك .

وقد ذهب الرازي إلى تأويل آخر استصوبه ، قال : إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم . كما أنه كذلك في دين الإسلام . ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو . فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها . وذكر أنى لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه . وهو المراد من قوله (عَن ذِكْرِ رَبِّي) ثم إنه عليه السلام أمر بإعدادها وتسميرها حتى توارت بالحجائب أى غابت عن بصره . ثم أمر الرائيين بأن يردوا تلك الخيل إليه . فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها ، والغرض من ذلك المسح أمور : الأول - تشريفا لها وإبانة لعزتها ، لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو . والثاني - أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتصنع إلى حيث يباشراً أكثر الأمور بنفسه . الثالث - أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها . فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها ، حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض .

وقال : فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقاً مطابقاً موافقاً . ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات والمخذورات .

قال : وأنا شديد التمجيب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة . مع أن العقل والنقل يردّها . وليس لهم في إثباتها شبهة فضلاً عن حجة فإن قيل : إن الجمهور فسروا الآية بذلك الوجه ، فما قولك فيه ؟ فنقول : لناهنا مقامان : المقام الأول - أن ندعى أن لفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي يذكرونها . وقد ظهر ، والحمد لله ، أن الأمر كما

ذكرناه ، وظهوره لا يرتاب العاقل فيه . المقام الثاني - أن يقال : هب أن لفظ الآية لا يدل عليه ، إلا أنه كلام ذكره الناس . فما قولك فيه ؟ وجوابنا أن الأدلة الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام . ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات . ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية ، فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالي بهم ولا يلتفت إلى أقوالهم؟ والله أعلم . انتهى كلام الرازي .

وسبقه ابن حزم حيث قال : تأويل الآية على أنه قتل الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة ، خرافة موضوعة مكذوبة سخيفة باردة . قد جمعت أفانين من القول ، لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها ، والتمثيل بها . وإتلاف مال منقطع به بلا معنى . ونسبة تضييع الصلاة إلى نبيٍّ مرسل ، ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها . وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب حب الخير . من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس أو تلك الصافنات بحجابها . ثم أمر بردها . فطفق مسحاً بسوقها وأعناقها بيده ، برأبها وإكرامها لها ، هذا هو ظاهر الآية الذي لا يحتمل غيره . وليس فيها إشارة أصلاً إلى ما ذكروه من قتل الخيل وتمطيل الصلاة . وكل هذا قد قاله ثقات المسلمين . فكيف ولا حجة في قول أحد دون رسول الله ﷺ ؟ انتهى كلام ابن حزم .

وأقول : الذي يتجه أن هذه القصة أشير بها إلى نبأ لديهم . لأن التنزيل الكريم مصدق الذي بين يديه . إلا أن له الهيمنة عليه . فما وقف فيه على حدّ من أنباء ما بين يديه ، يوقف عنده ولا يتجاوز . وحينئذ ، فالقصة المعروفة عندهم هي التي أشير إليها . لكن مع الهيمنة عليها ، إذ لا تقبل على علّتها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ)

« وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ » أي ابتليناه « وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً » أي جسماً مجسداً

كناية عن صنم - على ماروو - وإنما أوثر الجسد عليه - إجلالاً لسليمان عليه السلام ، وإشارة

إلى أن قصته - إن صحت - كانت أمراً عرض وزال ، بدليل قوله تعالى « ثُمَّ أَنَابَ » أى إلى ربه بالتوبة والاستغفار ، كما بينه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۳۵] (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

« قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي » أى غيرى ، لفخامته وعظمته ، هبة فضل وإيثار امتنان « إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۳۶] (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ)

« فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ » أى فذلناها لطاعته إجابة لدعوته « تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً » أى لينة سهلة ، مع شدة وقوة ، ولذا وصفت فى الآية الأخرى بـ (عَاصِفَةً) « حَيْثُ أَصَابَ » أى أراد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۳۷] (وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ)

« وَالشَّيَاطِينَ » عطف على الريح « كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ » أى فى قعر البحر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۳۸] (وَءَاخِرِينَ مَّقَرَّرِينَ فِي الْأَصْفَادِ)

« وَءَاخِرِينَ مَّقَرَّرِينَ فِي الْأَصْفَادِ » أى مسلسلين فى الأغلال لا يبعثهم إلى عمل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ » أى على من شئت من المقرنين وغيرهم « أَوْ أَمْسِكْ » أى امنع « بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى غير محاسب على المن والإمساك ، فيكون حالاً من المستكن . أو هو حال من العطاء ، أو صلة له ، وما بينهما اعتراض . والمعنى : إنه عطاء جم لا يكاد يمكن حصره . فقد يعبر عن الكثير بـ (لا يعدّ) و (لا يحسب) ونحوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَإِنَّ لَهُ وَعِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ)

« وَإِنَّ لَهُ وَعِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ » أى لقربى في الدرجات ، « وَحُسْنَ مَّآبٍ » أى مرجع في الآخرة .

تنبيه :

روى الأثرين ههنا قصصاً مطولة ومختصرة ، مؤلفة ومختلفة . قال ابن كثير : وكلها متلقاة من أهل الكتاب ، وفيهم طائفة لا يمتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام . فالظاهر أنهم يكذبون عليه . ولهذا كان في سياقها منكرات . وتقوية ابن حجر لبعض منها بأنه خرجه النسائي بإسناد قوى - لاعتباره له . فليس المقام قاصراً على صحة السند فحسب ، لو كان ذلك في الصحيحين ، فأنى بمرورى غيرها ؟؟

وذكر الرازى أن القصص المروية هنا هي لأهل الحشو من تأويلهم . وأما أهل التحقيق فلهم تأويلات ، وقد ساقها فانظرها .

وقال الإمام ابن حزم : معنى قوله تعالى (فَتَنَّا سُلَيْمَانَ) أى آتيناها من الملك ما اختبرنا به طاعته ، كما قال تعالى مصداقاً لموسى عليه السلام في قوله ^(١) (إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٥] .

تَشَاءَ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ) إذ من الفتنة ما يهدي الله بها من يشاء وقال تعالى^(١) (الْم * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ) فهذه الفتنة هي الاختبار حتى يظهر المهتدى من الضال ، فهذه فتنة الله تعالى لسليمان إنما هي اختباره حتى ظهر فضله فقط . وما عدا هذا خرافات ولدها زنادقة اليهود وأشباههم . وأما الجسد الملقى على كرسيه فقد أصاب الله تعالى به ما أراد . تؤمن بهذا كما هو ، ونقول (صدق الله عز وجل ، كل من عند الله ربنا) ولو جاء نص صحيح في القرآن أو عن رسول الله ﷺ بتفسير هذا الجسد ماهو ، لقلنا به ، فإذا لم يأت بتفسيره ماهو نص ولا خبر صحيح ، فلا يحل لأحد القول بالظن الذي هو أ كذب الحديث في ذلك ، فيكون كاذبا على الله عز وجل ، إلا أننا لانشك البتة في بطلان قول من قال إنه كان جنيا تصور بصورته ، بل نقطع على أنه كذب . والله تعالى لا يهتك ستر رسوله ﷺ هذا الهتك ، وكذلك نبعد في قول من قال إنه كان ولدأله ، أرسله إلى السحاب ليربيه . فسليمان عليه السلام كان أعلم من أن يربى ابنه بغير مطبع الله عز وجل بنية البشر عليه من اللبن والطعام . وهذه كلها خرافات موضوعة مكذوبة ، لم يصح إسنادها قط . انتهى .

وزعم القاشاني أن حكاية الجنى والخاتم مع سليمان ، هي من موضوعات حكام اليهود ، كسائر ما وضعت الحكماء في تمثيلاتهم من حكايات أسبال وسلامان^(٢) .

ثم أخذ القاشاني في تأويلها ، إلا أنه حل الإشكال بإشكال أعظم منه ، عفا الله عنه ، وقال قبل : إن صحت الحكاية في مطابقتها للواقع ، كان قد ابتلى بمثل ما ابتلى به ذوالنون وآدم عليهما السلام ، انتهى والله أعلم .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ١-٣] .

(٢) انظر المراد منها في شرح (الإشارات) لابن سينا في أول النمط التاسع من مقامات

العارفين وأمثالها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأذْكَرُ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ وَ- أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) « وَأذْكَرُ » أى فى باب الابتلاء وحسن عاقبة الصبر عليه « عَبْدَنَا » أى الكامل فى التحقق بالعبودية « أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ وَ- » أى دعاه وابتهل إليه قائلاً « أَنِّي مَسَّنِيَ » أى أصابنى « الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ » أى مشقة (بضم النون وفتحها مع سكون الصاد، وبفتحهما وضمهما) « وَعَذَابٍ » أى ألم شديد. وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ ، هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)

« أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ » حكاية لما أجيب به دعاؤه عليه السلام. أى: فاستجبنا له وقلنا: اركض برجلك. أى اعدبها وامش، فقد برأت وشفيت من مرضك. وقوى جسمك وصح بدنك « هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » أى ماء تغتسل به وتشرب منه. والإشارة إلى عين أو نهر أو نحوها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَوَهَبْنَا لَهُ- أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

« وَوَهَبْنَا لَهُ- أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » أى ترحمنا عليه بهذا الإضعاف والمباركة « وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » أى وتذكيرا لهم لينتظروا الفرج بالصبر والنوال بصدق الاتسكال.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْمِثْ ، إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ، نَعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ- أَوَّابٌ)

« وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا » أى حزمة صغيرة « فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا » أى فى كل ما ابتليناه به « نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ وَأَوَّابٌ » أى كثير الرجوع إلى الله تعالى ، بالإجابة والابتهاال والعبادة .

تنبيهات

الأول - كان أيوب عليه السلام نبيا غنيا من أرباب العقار والماشية . وكان أميراً فى قومه . وكانت أملاكه ومنزله فى الجنوب الشرقى من البحر الميت ، بين بلاد أدوم وصحراء العربية . وكانت إذ ذاك خصيبة رائثة التربة كثيرة المياه المتسلسلة . وكان زمنه بعد زمن إبراهيم وقبل زمن موسى عليهم السلام . هذا ما حققه بعض الباحثين . والله أعلم .

الثانى - يذكر كثير من المفسرين ههنا مرويات وقصصا إسرائيلية فى ابتلائه عليه السلام . ولا وثوق من ذلك كله إلا بجملة . وهو ما أشار له التنزيل الكريم ؛ لأنه المتيقن . وهو أنه عليه الصلاة والسلام أصابته بلوى عظيمة فى نفسه وماله وأهله . وأنه صبر على ذلك صبوا صار يضرب به المثل لثباته وسعة صدره وشجاعته . وأنه جوزى بحسنة صبره أضعافها المضاعفة .

الثالث - قال الزمخشري : فإن قلت : لم نسب المس إلى الشيطان ولا يجوز أن يسلطه الله على أنبيائه ، ليقضى من إتمامهم وتعذيبهم وطره ، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحا إلا وقد نكبه وأهلكه . وقد تكرر فى القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب ؟

قلت : لما كانت وسوسته إليه ، وطاعته له فيما وسوس ، سببا فيما مسه الله به من النصب والعذاب - نسبه إليه . وقد راعى الأدب فى ذلك حيث لم ينسبه إلى الله فى دعائه ، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو . وقيل : أراد ما كان يوسوس به إليه فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ، ويفريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى الله تعالى فى أن يكفيه ذلك بكشف البلاء ، أو بالتوفيق فى دفعه وردده بالصبر الجميل . انتهى .

الرابع - دلّ قوله تعالى (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا) الآية ، على تقدم عيينٍ منه عليه السلام . وقد رووا هنا آثارا في الخوف عليه ، لم يصح منها شيء . فالله أعلم به ولا ضرورة لبياناه . إذ القصد الإعلام برحمة أخرى ونعمة ثانية عليه ، صلوات الله عليه . وهي الدلالة إلى الخرج من الحنث ، برخصة وطريقة سهلة سمجة ترفع الحرج . ونحن نورد هنا أمثلا ما كتب في الآية ، إيقافا للقارئ عليه ، قال السيوطي في (الإكمال) : أخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن عباس وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وغيرهم ؛ أن أيوب حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة . فلما كشف الله عنه البلاء أمر أن يأخذ ضغثا فيضربها به . فأخذ شاربخ مائة ثم ضربها ضربة واحدة . قال سعيد بن جبير : وهي لهذه الأمة لمن حلف على مثل ما حلف عليه أيوب . ثم أخرج أيضا عن عطاء قال : هي للناس عامة . وعن مجاهد قال : كانت لأيوب خاصة قال السكيا الهراسي : ذهب الشافعي وأبو حنيفة وزفر ، إلى أن من فعل ذلك فقد برّ في عيینه . وخالف مالك وراه خاصا بأيوب .

قال : وفي الآية دليل على أن الزوج ضرب زوجته ، وأن يحلف ولا يستثنى . انتهى . واستدل بهذه الآية على أن الاستثناء شرطه الاتصال . إذ لولم يشترط لأمره تعالى بالاستثناء ولم يحتج إلى الضرب بالضغث . واستدل عطاء بالآية على مسألة أخرى . فأخرج سعيد بن منصور عنه بسند صحيح ؛ أن رجلا قال له : إني أردت أن لأكسى امرأتى ذراعا حتى تقف بعرفة . فقال : احملها على حمار ثم اذهب فقف بها بعرفة . فقال : إنما عفت يوم عرفة . فقال عطاء : وأيوب حين حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة ، ما نوى أن يضربها بالضغث ، إنما أمره الله أن يأخذ ضغثا فيضربها به . قال عطاء : إنما القرآن عبرة . انتهى كلام (الإكمال) .

وقد رد الإمام ابن القسيم في كتابه (إغاثة اللهيّمان) الاستدلال بهذه الآية على جواز الحيلة . وعبارته : وأما قوله تعالى لأيوب عليه السلام (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ) فمن العجب أن يحتج بهذه الآية على من يقول : إنه لو حلف ليضربه عشرة أسواط فجمعها وضر به بها

ضربة واحدة لم يبرّ في يمينه، هذا قول أصحاب أبي حنيفة ومالك وأصحاب أحمد. وقال الشافعي: إن علم أنها مسته كلها، برّ في يمينه. وإن علم أنها لم تمسه، لم يبر. وإن شك لم يحنث. ولو كان هذا موجبا لبرّ الحالف، لسقط عن الزاني والفاذف والشارب بعدد الضرب، بأن يجمع له مائة سوط أو ثمانين ويضربه بها ضربة واحدة. وهذا إنما يجري في المرض كما قال الإمام أحمد، في المريض عليه الحدّ، ويضرب بمشكال يسقط عنه الحد. واحتج بما رواه عن أبي أمامة بن سهل، عن سعيد بن سعد بن عبادة^(١) قال: كان بين أبنائنا إنسان مخدج ضعيف، لم يبرع أهل الدائم إلا وهو على أمة من إماء الدار يحنث بها. وكان مسلما. فرفع شأنه سعد إلى رسول الله ﷺ. فقال: اضربوه حده، قالوا: يا رسول الله! إنه أضعف من ذلك إن ضربناه مائة قتلناه. فقال: نخذوا له عمكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه ضربة واحدة، وخلوا سبيله. وأما قصة أيوب فلها فقه دقيق. فإن امرأته كانت لشدة حرصها على عافيته وخلاصه من دائه، تلتمس له الدواء بما تقدر عليه، فلما لقيها الشيطان وقال ما قال، أخبرت أيوب عليه السلام بذلك، فقال: إنه الشيطان. ثم حلف لأن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة سوط فسكنت معذورة محسنة في شأنه، ولم يكن في شرعهم كفارة. فإنه لو كان في شرعهم كفارة، لعدل إلى التكفير، ولم يحتج إلى ضربها. فسكنت اليمين موجبة عندهم كالحود. وقد ثبت أن المحدود إذا كان معذورا خفف عنه، بأن يجمع له مائة شمراخ أو مائة سوط فيضرب بها ضربة واحدة. وامرأة أيوب كات معذورة، لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان، وإنما قصدت الإحسان. فلم تسكن تستحق العقوبة، فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يعاملها معاملة المعذورة، هذا مع رفقها به وإحسانها إليه فجمع له بين البر في يمينه والرفق بامرأته المحسنة للمعذورة، التي لا تستحق العقوبة. فظهر موافقة نص القرآن في قصة أيوب عليه السلام، لنص السنة، في شأن الضعيف الذي زنى. فلا يعمدى بهما عن محلها.

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٢٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي).

فإن قيل : فقولوا هذا في نظير ذلك ممن حلف ليضربن امرأته أو أمته مائة ، وكاننا معذورتين لا ذنب لهما ، إنه يبرّ بجمع ذلك في ضربها بمائة شراخ . قيل : قد جمل الله له مخرجا بالكفارة ، ويجب عليه أن يكفر يمينه ، ويقضى الله بالبر في يمينه ههنا ، ولا يحل له أن يبرّ فيها ، بل بره فيها هو حنثه مع الكفارة . ولا يحل له أن يضربها لا مفرقا ولا مجموعا .

فإن قيل : فإذا كان الضرب واجبا كالحد ، هل تقولون ينفعه ذلك ؟ قيل : إما أن يكون العذر مرجوح الزوال كالحر والبرد الشديد ، والمرض اليسير ، فهذا ينتظر زواله . ثم يحد الحد الواجب . كما روى مسلم^(١) في صحيحه عن عليّ رضي الله عنه ، أن أمة لرسول الله ﷺ زنت . فأمرني أن أجلدها . فأتيتهما فإذا هي حديثه عهد بنفاس . فخشيت إن جلدها أن أقتلها ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : أحسنت . أتركها حتى تمأثل . انتهى كلام ابن القيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَأَذْكَرٌ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ)

« وَأَذْكَرٌ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ » أى ذوى القوة في العبادة والأفكار في معرفة الله تعالى . قال القاشاني : أى العمل والعلم ، لنسبة الأول إلى الأيدي ، والثاني إلى البصر والنظر ، وهم أرباب الكلمات العملية والنظرية . قال الثمهاب : (الأيدي) مجاز عن القوة ، مجاز مرسل . و (الأبصار) جمع بصر بمعنى بصيرة . وهو مجاز أيضا ، لكنه مشهور فيه . وإذا أريد بـ (الأيدي) الأعمال ، فهو من ذكر السبب وإرادة المسبب . و (الأبصار) بمعنى البصائر مجاز عما يتفرع عليها من المعارف كالأول أيضا . وعلى الوجهين ، فيه تعريض بأن من ليس كذلك ، كان لاجارحة له ولا بصر . انتهى .

(١) أخرجه في : ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث رقم ٣٤ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ)

« إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ » أى صفيناهم عن شوب صفات النفوس وكدورة حظوظا . وجعلناهم لنا خالصين بالحبة الحقيقية « بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ » أى الباقية والمقر الأصلي ، أى استخلصناهم لوجهنا بسبب تذكرهم لعالم القدس ، وإعراضهم عن معدن الرجس ، مستشرفين لأنوارنا ، لا التفات لهم إلى الدنيا وظلماتها أصلا .

لطيفة :

قال السمين : قرأ نافع وهشام : (بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) بالإضافة . وفيها أوجه : أحدها - أن يكون أضاف خالصة إلى ذكرى للبيان . لأن الخالصة قد تكون ذكرى وغير ذكرى . كقافي قوله^(١) (بِشِهَابٍ قَبَسٍ) لأن الشهاب يكون قبسا وغيره ، الثانى - أن خالصة مصدر بمعنى إخلاص ، فيكون مصدرا مضافا لمفعوله ، والفاعل محذوف ، أى بأن أخلصوا ذكر الدار وتناسوا عند ذكرها ذكر الدنيا . وقد جاء المصدر على (فاعلة) كالمعاقبة . أو يكون المعنى بأن أخلصنا نحن لهم ذكرى الدار .

وقرأ الباقون بالتنوين وعدم الإضافة . وفيها أوجه : أحدها - أنها مصدر بمعنى الإخلاص ، فيكون (ذكرى) مفعولا به ، وأن يكون بمعنى الخلوص ، فيكون (ذكرى) مرفوعا به ، والمصدر يعمل منونًا كما يعمل مضافا . أو يكون (خالصة) اسم فاعل على بابها . و (ذكرى) بدل أو بيان لها أو منصوب بإضمار (أعنى) أو هو مرفوع على إضمار مبتدأ ، و (الدار) يجوز أن يكون مفعولًا به ؛ (ذكرى) وأن يكون ظرفا إما على الاتساع وإما على إسقاط الخافض . و (خالصة) إن كانت صفة ، فهي صفة لمحذوف . أى بسبب خصلة خالصة . انتهى .

(١) [٢٧ / النمل / ٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ)

[٤٨] (وَأَذْكُرُهُمْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ، وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ)

« وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ » أى المختارين من أبناء جنسهم لقربنا « الْأَخْيَارِ »

أى المزهين عن شوائب الشرور . على أنه جمع (خير) مقابل (شر) الذى هو أعمل تفضيل .
أو هو جمع (خير) المشدد أو المخفف منه « وَأَذْكُرُهُمْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ » أى بالنبوة والرسالة ، للهداية والإصلاح . و (اليسع) خليفة إيلياس وكان خادمه . ويقال له بالعبانية (الإشاع) كما يسمى إيلياس فيها (إيليا) ، وفى التوراة نبأ طويل عن اليسع ونبوته ومعجزاته صلوات الله عليه . وتقدم عن أنباء هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ، فى سورة الأنبياء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (هَذَا ذِكْرٌ ، وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّآبٍ)

[٥٠] (جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمْ الْأَبْوَابُ)

« هَذَا ذِكْرٌ » أى شرف لهم . و (الذكر) يتجاوز به عنه . قال الشهاب : لأن الشرف

يلزمه الشهرة والذكر بين الناس ، فتجاوز به عنه بعلاقة اللزوم . فيكون المعنى : أى فى ذكر قصصهم وتنويه الله بهم شرف لهم . واختار الزمخشري أن المعنى : هذا نوع من الذكر وهو القرآن . أى فالتنوين للتنويع . والمراد بالذكر القرآن . فذكره إنما هو للانتقال من نوع من الكلام إلى آخر .

قال الزمخشري : لما أجرى ذكر الأنبياء وأئمة ، وهو باب من أبواب التنزيل ، وتوع

من أنواعه ، وأراد أن يذكر على عقبه بابا آخر ، وهو ذكر الجنة وأهلها ، قال (هَذَا ذِكْرٌ)

« وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتٍ عَدْنٍ » أى إقامة وخلود « مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ »
أى متى جاءوها يرونها فى انتظارهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (مُتَّكِّينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ)

« مُتَّكِّينَ فِيهَا » أى على الأرائك « يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ »
أى مهما طلبوا وجدوا ، وأحضر كما أرادوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أُنْتَابٌ)

« وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ » أى لا ينظرن إلى غير أزواجهن . أو يعن طرف
الأزواج أن تنظر للغير ، لشدة الحسن . وهو أبلغ . أو بمعنى حور الطرف جمع (أحور)
والثوب المقصور يشبه بالحوارى فى بياضه ونصاعته « أُنْتَابٌ » أى متساوية فى السن
والرتب ، لا عجوز بينهم . جمع (ترب) بكسر فسكون . وهو من يولد معه فى وقت واحد .
كأنهما وقعا على التراب فى زمان واحد . ف (ترب) فعل بمعنى مفاعل ومتارب . وكمثل
بمعنى ، مماثل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ)

« هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ » أى لوقت جزائه . واللام تمليلية . فإن ما وعدوه
لأجل طاعتهم وأعمالهم الصالحة . وهى تظهر بالحساب وتقع بعده . فيجمل كأنه علة لتوقف
إنجاز الوعد عليه . فالنسبة لليوم والحساب مجازية . ولو جمعت اللام بمعنى (بعد) كما فى
(كتب لمجلس) سلم مما ذكر . أفاده الشهاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ هَذَا لَرِزْقٌ أَمَّا لَهُ مِنْ نَفَادٍ)

« إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ » أى انقطاع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (هَذَا ، وَإِنَّ لِلطَّغِينِ لَشَرًّا مَّآبٍ)

[٥٦] (جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ)

« هَذَا » أى باب في وصف الجنة وأهلها . فهو مبتدأ خبر مقدر . أو الأمر هذا .

فهو خبر لمخدوف . أو مفعول لمخدوف « وَإِنَّ لِلطَّغِينِ لَشَرًّا مَّآبٍ * جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا فَبِئْسَ

الْمِهَادُ » أى الفراش . مستعار من فراش النائم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ)

« هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » وهو ما يفسق من صديد أهل النار . أى يسيل .

وجملة (فَلْيَذُوقُوهُ) معترضة بين المبتدأ وخبره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَزْوَاجٌ)

« وَءَاخِرُ » أى ومدنوق ، أو عذاب آخر « مِنْ شَكْلِهِمْ » أى مثل هذا المدنوق

أو العذاب في الشدة والهوان « أَزْوَاجٌ » أى أجناس وأصناف . ثم بين ما يقال للرؤساء

الطاغين ، إذا أدخلوا النار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَضِمٌ مَعَكُمْ ، لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ، إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ)
 « هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَضِمٌ مَعَكُمْ » أى هذا جمع كثيف من أتباعكم وأشباهم ، أهل طبائع السوء والرزائل المختلفة ، مقتضم معكم فى مضايق المذلة ومداخل الهوان . والافتحام ركوب الشدة والدخول فيها . وقوله « لَا مَرْحَبًا بِهِمْ » دعاء من الرؤساء على أتباعهم . أوصفة لـ (فوج) . أو حال . أى مقولا فيهم (لَا مَرْحَبًا بِهِمْ) أى ما أتوا ربهم رحبا وسعة ، لشدة عذابهم وكونهم فى الضيق والظنك ، واستيحاش بعضهم من بعض ، لقبح المناظر وسوء المخار « إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ » أى داخلوها بأعمالهم مثلنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ، أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبئْسَ الْقَرَارُ)
 « قَالُوا » أى الأتباع للرؤساء . « بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ » أى بل أنتم أحق بما قلتم ، لتضاعف عذابكم بضلالكم وإضلالكم « أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا » أى قدمتم العذاب بإضلالنا وإغوائنا .

قال القاشانى : وهذه المقاولات قد تكون بلسان المقال وقد تكون بلسان الحال . أى لأن الوضع لا يختص بالحقيقة . إلا أن الأظهر الأول . ويؤيده قوله تعالى بمد (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) « فَبئْسَ الْقَرَارُ » أى المستقر جهنم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ)
 « قَالُوا » أى الأتباع أيضا « رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ » كقوله (١) تعالى (رَبَّنَا إِنَّا أَعْثَرْنَا نَفْسًا ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ)

« وَقَالُوا » أي الطاغون أو الأتباع « مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ »

يعنون فقراء المسلمين الذي يستردلونهم ويسخرون بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَتَّخَذُوا نُهُمُ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ)

« أَتَّخَذُوا نُهُمُ سِخْرِيًّا » قرى بلفظ الإخبار على أنه صفة (رجالاً) . وبهمزة الاستفهام

على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسغار منهم . وقوله تعالى « أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ

الْأَبْصَارُ » أي مالت عنهم كبرا ، وتنحّت عنهم أنفة . والمعنى أي الفعلين فعلنا بهم ،

السخرية منهم أم الإزراء بهم ، على معنى إنكار الأمرين على أنفسهم ، تحسرا وندامة على

ما فعلوا ، وعلى ما حاق بهم وحدثهم من سوء العذاب ، وقيل (أم) بمعنى (بل) أي بل زاعت

عنهم أبصارنا لخفاء مكانهم علينا في النار . كأنهم يسألون أنفسهم بالحال ، يقولون : أو لعلمهم

معنا في جهنم ولكن لم يقع بصرا عليهم . فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات وهو

قوله عز وجل ^(١) (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا

حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، قَالُوا نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى

الظَّالِمِينَ) إلى قوله ^(٢) (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ) الآية . وقيل : (أم) بمعنى (بل) أيضا ، أي بل

زاعت عنهم أبصارنا لكونهم في دار أخرى وهي دار النعيم . وقرى (سَخْرِيًّا) بضم

السين وكسرهما .

(١) [٧ / الأعراف / ٤٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ٤٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ)

« إِنَّ ذَلِكَ » أى الذى حكى عنهم « لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ » أى لواقع وثابت .
 و (تَخَاصُمُ) بدل من (حَقٌّ) أو خبر لمخذوف . وقرئ بالنصب على البدل من (ذَلِكَ) قال الزمخشري : فإن قلت : لم سمي ذلك تخاصما ؟ قلت : شبه تقاولهم وما يجرى بينهم من السؤال والجواب ، بما يجرى بين المتخاصمين من نحو ذلك . ولأن قول الرؤساء (لَا مَرَّ حَبَابًا بِهِمْ) وقول أتباعهم (بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرَّ حَبَابًا بِكُمْ) من باب الخصومة . فسمى التقاول كله تخاصما ، لأجل اشتماله على ذلك . انتهى .

فكتب الناصر عليه : هذا يحقق ما تقدم من أن قوله (لَا مَرَّ حَبَابًا بِهِمْ) إِيَّاهُمْ صَالُوا النَّارِ) من قول المتكبرين الكفار . وقوله تعالى (بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرَّ حَبَابًا بِكُمْ) من قول الأتباع . فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين . فيتحقق التخاصم . خلافا لمن قال إن الأول من كلام خزنة جهنم والثاني من كلام الأتباع . فإنه على هذا التقدير ، إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين . فالتفسير الأول أمكن وأثبت . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ » أى رسول مخوف « وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ » أى بلا ولد ولا شريك « الْقَهَّارُ » أى الغالب على خلقه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

« رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا » أى من الخلق والعجائب « الْعَزِيزُ » أى الذى لا يغلب إذا عاقب العصاة « الْغَفُورُ » أى لمن تاب وأناب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (قُلْ هُوَ نَبَوُّهُ عَظِيمٌ)

« قُلْ هُوَ » أى الذى أنذرتكم به من التوحيد ومن البعثة به « نَبَوُّهُ عَظِيمٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَأَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ)

« أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ » لتماذى غفلتكم . فإن العاقل لا يمرض عن مثله . كيف وقد قامت عليه الحجج الواضحة . أما على التوحيد ، فما مرّ من آثار قدرته وصنمه البديع . وأما على بعثته ﷺ به ، فقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

« مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ » أى فإن إخباره عن محاورة الملائكة وما جرى بينهم ، على ما ورد فى الكتب المتقدمة ، من غير سماع ومطالعة كتاب ، لا يتصور إلا بالوحى .

قال القاشانى : وفرق بين اختصام الملائكة الأعلیٰ واختصام أهل النار بقوله فى تخاصم أهل النار (إِنْ ذَٰلِكَ لَحَقُّ) وفى اختصام الملائكة الأعلیٰ (إِذْ يَخْتَصِمُونَ) لأن ذلك حقيق لا ينتهى إلى الوفاق أبداً . وهذا عارضى نشأ من عدم اطلاعهم على كمال آدم عليه السلام ، الذى هو فوق كالاتهم . وانتهى إلى الوفاق عند قولهم ^(١) (سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) وقوله تعالى ^(٢) (أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّنِي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) على ما ذكر فى البقرة عند تأويل هذه القصة . انتهى .

(١) [٢ / البقرة / ٣٢] . (٢) [٢ / البقرة / ٣٣] .

وبالجملة ، فالاختصاص المذكور في الآية ، هو المشار إليه في قوله تعالى (١) (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) قال الرازي : وهو أحسن ما قيل فيه .
ثم قال : ولو قيل : كيف جازت محاصمة الملائكة معه تعالى ؟ قلنا : لاشك أنه جرى هناك سؤال وجواب . وذلك يشابه المحاصمة والمناظرة . والمشابهة علة لجواز المجاز . فهذا السبب حسن إطلاق لفظ المحاصمة عليه . انتهى .

وملخصه : أن (يَخْتَصِمُونَ) استعمارة تبعية لـ (يتقاولون) . وقيل : معنى الآية نفى علم الغيب عنه ﷺ ورد اقتراحهم عليه أن يخبرهم بما يحدث في الملائ الأعلى من التخاصم ، كقوله تعالى (٢) (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) وقوله (٣) (قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) ولذا قال بعد :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (إِن يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« إن يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ » وقُرئ (إنَّمَا) بالكسر على الحكاية .

تنبيهات :

الأول- قال الرازي : واعلم أن قوله (أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ) ترغيب في النظر والاستدلال ، ومنع من التقليد . لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية ، فإن بتقدير أن يكون الإنسان فيها على الحق ، يفوز بأعظم أبواب السعادة ، وبتقدير أن يكون الإنسان فيها على الباطل ، وقع في أعظم أبواب الشقاوة . فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية بهيمة . وصرح العقل بوجوب على الإنسان أن يأتي فيها بالاحتياط التام ، وأن لا يكتفى بالمساهلة والمساحة .
الثاني - قدمنا أن أكثر المفسرين على تأويل الاختصاص بالتقاول في شأن آدم عليه السلام

(١) [٢ / البقرة / ٣٠] . (٢) [٦ / الأنعام / ٥٠] . (٣) [٦٧ / الملك / ٢٦] .

مع الملائكة . وقيل : مخاصمتهم مناظرتهم بينهم في استنباط العلم . كما تجرى المناظرة بين أهل العلم في الأرض . حكاه الكرماني في (عجائبه) .

وذهب ابن كثير إلى أنه عني به ما كان في شأن آدم عاينه السلام ، وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه في تفضيله عليه . وإن قوله تعالى بعد ^(١) (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ) تفسير له . ولم أره مأثورا عن أحد . بل المأثور عن ابن عباس وغيره ما تقدم ، من أنه في شأن آدم والملائكة . وهذا كله على إثبات علم التخاصم بالوحي . بتقدير (ما كان لي من علم لولا الوحي) ولا تنس القول الآخر . والنظم الكريم يصدق على الكل بلا تناف . والله أعلم . وقد جاء ذكر تخصص الملائكة الأعلى في حديث أخرجه الإمام أحمد ^(٢) عن معاذ رضي الله عنه قال : احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح . حتى كدنا أن نترأى قرن الشمس . فخرج ﷺ سرىما . فنثوب بالصلاة . فصلى وتجاوز في صلاته . فلما سلم قال ﷺ : كما أنتم . ثم أقبل إلينا فقال : إني قت من الليل فصليت ما قدر لي . ففمست في صلاتي حتى استيقظت . فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة . فقال : يا محمد ! أتدرى فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قلت : لا أدري ، يارب ! أعادها ثلاثا . فرأيت به وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدرى . فتمجلى لي كل شيء وعرفت . فقال : يا محمد ! فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قلت : في الكفارات . قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجماعات ، والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات . قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام . قال : سل . قلت : اللهم ! إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمي . وإذا أردت

(١) [٢ البقرة / ٣٠] .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٤٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

فتنةً بقوم، فتوفني غير مفتون. وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك .
وقال رسول الله ﷺ : إنها حق فادرسوها وتعلموها .

قال ابن كثير : هذا حديث المنام المشهور . ومن جملة يقظة فقد غلط . وهو في السنن
من طرق . وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذي^(١) من حديث جهضم بن عبد الله اليماني به ،
وقال : حسن صحيح .

ثم قال ابن كثير : وليس هذا الاختصاص المذكور في القرآن . فإن هذا قد فسر .
وأما الاختصاص الذي في القرآن فقد فسر بعد هذا . انتهى . يعني قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ)

[٧٢] (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

« إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ
فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » أى نغروا له ساجدين تعظيما وتكريما ،
إذا عدلت خلقته وأحييته بنفخ الروح فيه . (فإذا) بدل من (إذ) الأولى مفصل لما أجمل
قبلها من الاختصاص ، وهذا ما رآه الزمخشري وتابعه ابن كثير . وقدّر أبو البقاء (اذ كر)
وهو الأظهر عندي ، ويعضده القول الثاني في الآية المتقدمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

[٧٤] (إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

« فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ » أى تعظم

(١) أخرجه في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣٨ - سورة ص ، ٤ - حدثنا محمد بن بشار .

« وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » أى باستكباره أمر الله تعالى ، واستكباره عن طاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ يَا بَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ، أَسْتَكْبَرْتَ
أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ)

« قَالَ يَا بَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي » أى بنفسى من غير توسط ،
كأب وأم « أَسْتَكْبَرْتَ » أى : أعرض لك التكبر والاستنكاف « أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ »
أى عليه زائداً فى المرتبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

« قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » يعنى أن الروح الحيوانى
النارى أشرف من المادة الكثيفة البدنية . وغاب عنه ما تضمنته من الحكمة الإلهية ،
واللطيفة الربانية حتى تمسك بالقياس ، وعصى الله تعالى فى السجود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)

« قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا » أى من الجنة أو السماء « فَإِنَّكَ رَجِيمٌ » أى مطرود من الرحمة
ومحل الكرامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)

« وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ » قال الفاشانى : الرجيم واللعين من بعد عن

الحضرة القدسية ، المنزهة عن المواد الرجسية ، بالانغماس في الغواشي الطبيعية ، والاحتجاب بالكواش الهيولانية . ولهذا وقت اللعن بيوم الدين . وحدد نهايته به ، لأن وقت البعث والجزاء هو زمان تجرد الروح عن البدن ومواده . وحينئذ لا يبقى تسلطه على الإنسان . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ)

[٨٠] (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ)

[٨١] (إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)

[٨٢] (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٨٣] (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)

« قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ » وهو القيامة الكبرى « قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ » وهم الذين أخلصهم الله لنفسه من أهل العناية عن ثوب الكدورات النفسية وحجب الأنانية ، وصنى فطرتهم عن خلط ظلمة النشأة البشرية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ)

« قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ » جملة معترضة ، للتأكيد ، أى ولا أقول إلا الحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٨٦] (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)

« لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ » أى تبعك فى التعرز والاستكبار والإباء عن الحق والمحاجة فى الباطل « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ » أى على القرآن أو الوحي . قال القاشانى : أى لا غرض لى فى ذلك . فإن أقوال الكامل المحقق بالحق مقصودة بالذات ، غير معلولة بالفرض « وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ » قال الزمخشري : أى المتصنعين الذين يتحلون بما ليسوا من أهله ، وما عرفتمونى قط متصنفا ولا مدعيا ما ليس عندى ، حتى أنتحل النبوة وأدعى القرآن .

تنبيه :

فى الآية ذم التكليف . وقد روى الشيخان^(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : يا أيها الناس ! من علم شيئا فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم . فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم . فإن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

[٨٨] (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٨ - سورة ص ، ٣ - باب وما أنا من المتكلمين ، حديث ٥٧٠ .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث رقم ٣٩ و ٤٠ (طبعتنا) .

(٢) [٣٨ / ص / ٨٦] .

« إِنَّهُ هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ الْعَالَمِينَ » أى عظة وتذكير لهم . وهذا كقوله (١) (لَا تُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) وقوله سبحانه (٢) (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ لِمَنِ الْأَنْزَابُ فَأَلْئَامًا مَوْعِدُهُ) « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » أى عند ظهور الإسلام وانتشاره ، ودخول الناس فيه أفواجا أفواجا ، من صحة خبره ، وإنه الحق والصدق . وهذا من أجل معجزات القرآن ، لأنه من الغيوب التي ظهر مصداقها ، إذ كان زمن الإخبار به زمن قلة من المؤمنين ، وخوف من المشركين . فلم يمض رده من الزمن حتى أبدل الله قلوبهم كثرة ، وضعفهم قوة ، وخوفهم أمناً ، وكونهم ظهورا وانتشاراً . فصدق الله العظيم ، وصدق نبيه الكريم ، وحققت كلمة الله على الكافرين ، والحمد لله رب العالمين .

(١) [٦ / الأنعام / ١٩] . (٢) [١١ / هود / ١٧] .